التقوى حبل الله

التقوى هي رأس الأمر والعمود الحقيقي والحبل المتين الذي يوصلني لمرضاة الله ﷻ، والابتعاد عن الذنوب والهفوات وأن لا يفوت العبد أصغر الطاعات ولا يفعل أصغر المحرمات.

عن أبي ذر ﷺ قال: قلت يا رسول الله أوصِني؟ قال: «**أوصيكَ بتقوى الله فإنهُ رأسُ الأمرِ كله**». قلت: يا رسول الله زدني.

قال: «**عليكَ بتلاوةِ القرآن وذكرِ اللهِ تعالى فإنُه نورٌ لكَ في الأرضِ وذخرٌ لكَ في السماءِ**»[1].

شرح الحديث:

محبة النبي الكريم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ظاهرة لأمته في أي من الأحوال، يؤدي النصائح لمن يلقى من أصحابه أو أهله.

يقول لأبي ذر: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله**».

فتقوى الله تعالى تمام أمر الدين كله وبالتقوى تكون قد أخذت بزمام الدين وحققت سعادة الدنيا والآخرة.

وعليك بتلاوة القرآن وذكر الله تعالى فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء، وعلامة المحب أن يسمع كلام محبوبه وينفذ أوامره، لأن ذكر الله غذاء الروح وشكره ومدحه شراب الروح، والتقوى أنس الروح وما يتلذذ المتلذذون بمثل ذكره وطاعته.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

الدليل القرآني

١ ـ أعظم ما يوجهنا إليه ﷺ في وصاياه تقوى الله ﷻ، من طبَّقها استحق التأييد والمعونة من الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل، الآية: ١٢٨] .

٢ ـ ووعدهم عليه الرزق الحسن والخلاص من الشدائد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطّلاق، الآيتان: ٢، ٣] .

٣ ـ وبها حفظهم من كيد الأعداء.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان، الآية: ١٢٠] .

٤ ـ جعل للمتقين حقاً على نفسه أن يرحمهم.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعرَاف، الآية: ١٥٦] .

٥ ـ وأنزلهم في الآخرة بجواره.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القَمَر: الآيتان: ٥٤، ٥٥] .

أصل التقوى

١ ـ اتقاء الشرك بالله.

٢ ـ اتقاء المعاصي والسيئات.

٣ ـ اتقاء الشبهات.

اتقاء الشرك بالله

قال رجل لذي النون: إني أحبك.

قال له ذي النون: إن كنت عرفت الله فحسبك الله، وإن لم تعرفه فاطلب من يعرفه حتى يدلك عليه.

كلمة إخلاص جزاؤها الجنة

روي عن زيد بن أرقم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة**» قيل: وما إخلاصها؟

قال: «**أن تحجزه عن محارم الله**»[١].

قصة غفران للموحدين

رأى أبو العباس شريح في مرض موته كأن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبحانه وتعالى يقول: أين العلماء؟

فجاؤوا فقال: ماذا عملتم فيما علمتم؟

فقلنا: يا رب قصرنا وأسأنا، فأعاد السؤال فكأنه لم يرض به وأراد جواباً آخر فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي شرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال الله تعالى: اذهبوا فقد غفرت لكم[٢].

اتقاء المعاصي والسيئات

إنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى رأى الصغيرة كبيرة.

قال ابن مسعود ﷺ: إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا.

---

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد.
(٢) الرسالة القشيرية.

الله يحب ستر المعصية

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره الله عليه ويصبح يكشف ستر الله عنه**»[١].

قال الأنطاكي:

إن وجدت ريناً[٢] في قلبك فأدم الصيام.

وإن وجدت ريناً في قلبك فأقلَّ الكلام.

وإن وجدت ريناً في قلبك فاترك الآثام.

وإن وجدت ريناً في قلبك فأكثر البكاء والتضرع إلى الملك العلام.

نداءات نورانية

رُويَ أن الله تعالى قال في بعض الكتب: وعزتي وجلالي لأقطعنَّ أمل كل مؤمّل غيري بالإياس يؤمّل عبدي غيري، والخير كله بيدي!

من الذي أمّلني فقطعت عنه أمله؟ ومن الذي رجاني فخيبت رجاءه؟ ومن الذي قرع بابي بالدعاء فلم أفتح له؟

عبدي! تنعم بذكري، فإني نعم المجيب لك في الدنيا والآخرة.

عبدي! أما استحييت مني إن أعرضت وجهك عني؟ وتُقبل على غيري!

عبدي! إلى أين تذهب، وطريق الوسيلة إليّ لا إلى غيري؟

---

(١) الصحيحين.

(٢) ريناً: قسوة وظلمة في القلب. جاء في كتاب مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني في كلمة (رين): الرَّيْنُ صدأ يعلو الشيء الجليّ، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، أي صار ذلك كصدأ على قلوبهم، فعمي عليهم معرفة الخير من الشر.

عبدي! أين من دعاني فلم أجبه؟ وأين من سألني فلم أعطه؟

عبدي! بابي لك مفتوح، وعطائي لك مبذول وأنا أرحم الراحمين[١].

الموت أحب من المعصية

قيل: إن عابداً من عباد بني إسرائيل راودته مليكة عن نفسه ـ أي عرضت نفسها عليه من أجل أن يزني معها ـ فاستأذن للطهارة فذهب للسطح وألقى بنفسه إلى الأرض، فأرسل الله له ملكاً وضعه على الأرض وضعاً رقيقاً، فقيل لإبليس: هلا أغويته؟

قال إبليس: ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله.

وقد ورد في الخبر: من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر، ومن تطيَّب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة[٢].

وصية صحيحة

سئل بعض الأولياء العارفين بالله: ما سبب الذنب؟

قال: سببه النظرة ومن النظرة الخطرة فيتولد منها الشهوة إن لم يقمعها وقعت المعصية.

اتقاء الشبهات

قال الحسن البصري: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

قال سفيان بن عيينة: لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال حتى يدع الإثم وما تشابه به.

وصاحب التقوى دائماً يذكر نفسه بالتقصير ولا يرى لعمله فضل إلا

(١) حالة أهل الحقيقة مع الله، (الرفاعي ص: ٢٦٢ ـ ٣٦٣).
(٢) حكايا الصوفية.

بعون الله تعالى[١].

عطاء والريح

كان عطاء السلمي يبكي كلما هبت ريح شديدة ويقول: هذه من أجلي، يصيب بها الخلائق، لو مات عطاء لاستراح الخلائق من بلائه، وكثيراً ما كان ينوح على نفسه ويقول: يا عطاء لعلك أول مسحوب إلى النار وأنت غافل.

أصناف الناس

اعلم أن الناس أربعة أصناف:

١ ـ رجل جعل الله قلبه بصيراً ينظر بنور اليقين إلى لطائف صنعه وكمال قدرته.

٢ ـ رجل جعل الله عقله بصيراً ينظر بنور الفطنة إلى الوعد والوعيد.

٣ ـ رجل جعل الله سره بصيراً ينظر في كل الأوقات بنور المعرفة إلى الله تعالى.

٤ ـ رجل جعله الله مكفوفاً لا يبصر شيئاً فهو مظهر[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسرَاء، الآية: ٧٢].

بركة التقوى

قيل: كان رجلاً في البصرة يعرف بالمسكي لأنه كان يفوح منه رائحة المسك فسئل عنه فقال:

كنت أحسن الناس وجهاً وكان لي حياء.

---

(١) الرسالة القشيرية.

(٢) الرسالة القشيرية.

فقيل لأبي: لو أجلسته في السوق لانبسط مع الناس، فأجلسني في حانوت للبيع والشراء، فجاءت عجوز وطلبت متاعاً فأخرجت لها ما طلبت.

فقالت: لولا خرجت معي لثمنه؟ فمضيت معها حتى أدخلتني في قصر عظيم فيه قبة عظيمة، فإذا فيها امرأة على سرير عليه فرش مذهبة فجذبتني إلى صدرها.

فقلت: الله الله.

فقالت: لا بأس.

فقلت: إني حاقن فدخلتُ الخلاء وتغوطتُ ومسحتُ به وجهي وبدني.

فقيل: إنه مجنون، فخلصت.

ورأيت ليلة رجلاً قال لي: أين أنت من يوسف بن يعقوب؟

ثم قال: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا جبريل ثم مسح بيده على وجهي وبدني فمن ذلك الوقت يفوح المسك عليّ من رائحة جبريل عليه السلام[1].

وجود القلب

قال عليه الصلاة والسلام: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

قال ثابت النساج: قرأت القرآن سنين بالخوف فلم أجد القلب، ثم قرأته بالرجاء فلم أجد القلب، ثم قرأته بتجريد القلب من كل ما دون الله تعالى، فعند ذلك وجدته ورأيت عند وجوده الولاية الكبرى والعزة العظمى والمراتب العليا.

من هو خير بن عبد الله النساج؟ نسبة إلى نسج الثياب

صحب أبا حمزة البغدادي ولقي السري السقطي إلا أنه عُمّر عمراً

(١) حكايا الصوفية.

طويلاً، عاش كما قيل مائة وعشرين سنة. وتاب في مجلسه الشبلي والخواص، كان أستاذ الجماعة.

وإنما سمي «خير النساج» لأنه خرج إلى الحج وقد عاهد الله أن لا يأكل الرطب، فغلبته نفسه يوماً فأكل فأراد الله عقابه فأخذه رجل على باب الكوفة وقال له: يا خير يا آبق تهرب مني، وكان لهذا الرجل عبد اسمه (خير) هرب منه فشبهه فلم يخالفه سيدنا خير للرضا بقدر الله عليه إلى أن يفرج الله عنه.

فاستعمله الرجل في نسج الخز الذي كان ينسجه عبده، فكان يقول: يا خير! فيقول: لبيك، ثم قال له الرجل بعد أربعة أشهر: غلطت فيك لا أنت عبدي ولا اسمك خير، فامضِ إلى سبيلك، فمضى.

وقال سيدنا خير: في هذه الليلة قمت فتوضأت وقعدت إلى صلاة الفجر فسجدت وقلت في سجودي: إلٰهي لا أعود إلى ما فعلت، فأصبحت وذهب عني الشبه وعدت إلى صورتي التي كنت عليها.

وقال: لا أغير اسماً سماني به رجل مسلم.

وفاته:

قال أبا الحسين المالكي: سألت من حضر موت خير النساج عن أمره؟

فقال: لما حضرت صلاة المغرب غشي عليه ثم فتح عينيه وأومأ إلى ملك الموت في ناحية البيت وقال له: قف عافاك الله فإنما أنت عبد مأمور، وما أُمرتَ أنت به لا يفوتك، وما أُمرتُ أنا به يفوتني. ودعا بماء فتوضأ للصلاة ثم تمدد وأغمض عينيه وتشهد ومات.

مقامه عند الله:

فَرُئِيَ في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟

فقال لسائله: لا تسألني عن هذا ولكن استرحت من دنياكم الوضرة ـ

أي ذات الرائحة الكريهة ـ.

أما فضل أهل الذكر فعظيم.

قال ابن الحواري: رأيت الموصلي بعد موته في المنام كأنه قائم في الهواء وقد امتلأ الهواء من نوره.

فقلت له: ما فعل الله بك؟

قال: نعم المولى مولانا غفر لنا وأكرمنا وجعل بنا ما هو أهله.

قلتُ له: أوصني.

قال: عليك بمجالسة الذاكرين فإنهم عندنا في الرفيع الأعلى.

ما يرشد إليه الحديث تربوياً ودعوياً:

١ ـ التقوى هي العروة الوثقى التي توصل الإنسان إلى بر الأمان، وصاحب التقوى لا يبالي ماذا يفعل مولاه إن أغناه شكر نعمه عليه، وإن أفقره صبر واستغفر.

٢ ـ وصاحب التقوى يجب أن يكون قلبه صحيحاً ومن هموم الدنيا مستريحاً لا ينظر إلى المخلوقات ويستمد قواه ورزقه من الخالق، ويعتمد اعتماداً كلياً على الله تعالى. ألا نقرأ الحوار العظيم الذي دار بين حضرة المولى ﷻ وسيدنا موسى عليه السلام، كم نأخذ منه دروساً ونتعلم أن لا يكون الاعتماد إلا على الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: الآيتان ١٧، ١٨].

قال تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه، الآية: ١٩].

عندما سأله المولى: ما تلك بيمينك يا موسى؟ أجاب سيدنا موسى ظاهر الأمر: هي عصاي نسبها إلى نفسه وذكر فوائدها عنده، ونسي أن الأمر كله بأمر الله تعالى فأراه الله ﷻ هذا الاعتماد على الأشياء

عسى أن يكون في باطنها الضرر والأذى، فإذا هي حية تسعى، فخاف سيدنا موسى ونبهه عدم تعلق قلبه بسواه فرجع سيدنا موسى بقلبه لله تعالى، وعند ذلك أرجع الله ﷻ العصا لحالتها الأولى وقال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه، الآية: ٢١] .